اصوات الليل

قصة جديدة — بقلم جبرا ابراهيم جبرا

« إن تعظمك النساء ... » بدأ عدنان ، ثم تنحنح ليجلو حنجرته وأرسل نظرة لها معناها في الحلقة الصغيرة من الشباب الجالسين حوله . وقد اضاء وجهه وتوترت عيناه واتسعتا . فأدركوا في الحال انه يبغي ان يتلو آخر ما نظم من الشعر . كان « الكازينو » المطل على دجلة يكاد ينفتق بمن فيه ويبح باللغط والضجيج . والاستكانات ترن ّ ، والنرد يطقطق ، وقطع الدمينو تقع على الموائد في طَرَقات متعاقبة ، والراديو يعلو بجئيره فوق الجميع .

ولكن حلقة عدنان سكتت لتصرف عن آذانها ما استطاعت كل صوت سوى صوته ، وقد علا كصيحة فوق هدير البحر ، ويداه باصابعها الممتدة تعلو وتهبط بايقاع :

« إن تعظمك النساء ... »

ولا اذكر ابيات قصيدته بالنص ، ولكن لن انسى فحواها . وهو ان النساء يعظمنك رمزاً لشهواتهن ، لكي يصلبنك يوماً على نخلة وفمك فاغر لغبار الهاجرة . فيسكبن الخمر على قدميك ، ثم يأكلن عينيك ويندبن شفتيك لان ليس من يقبلها ، ثم يرقصن حول اوصالك وهن يقطّعنك عضواً عضواً ، ويسكبن الخمر من جديد ، ثم يفرغن مثاناتهن ، فينمو الشوك حثلاً حول بقاياك .

فهتف حسين : « عظيم ! أعد ، بالله أعد ! »

وبصوت اشد اهتزازاً من قبل — وكان صوت عدنان احدى خدعه المسرحية ، فهو يقول : ما نفع تلاوة الشعر إن لم تكن دراميــة أو اشبه بصوت الوحي ؟ — اعاد عدنان تلاوة قصيدته .

فهز عبد القادر رأسه ، وهو شاب طويل الشعر ضامر الوجه ، له نظرياته في كل امر من امور الحياة ، من الشعر الى الثورة ، وقال : « ولكنها ملأى بالمرارة . »

فأجاب حسين : « اما انا فأقول ليس فيها مرارة كافية . تذكّر ان عصر الورود والفجر الندي قد راح وولّى . اننا نريد شعراً خشناً آكلاً يستفز سامعه بل يغضبه . »

فقال عبد القادر ، والغليون بين فكيه : « اخشى ان ليس في ذلك إلا وقفة المتظاهر . وذلك يعني ان مثل ذلك الشعر كاذب . »

فقال عدنان : « كاذب ، كاذب ! أليست فيه خلاصة لمئات الاختبارات الانسانية ؟ قد تكون انت صاحب هذه الاختبارات أو غيرك . هل لذلك اهمية ؟ »

قال عبدالقادر : « اقصد انه كاذب لانه ليس صحيحاً بالنسبة الى الحياة . »

— « وما الصحيح بالنسبة الى الحياة ، ارجوك ؟ الحكمة المملة التي تملأ الكتب القديمة ؟ واقعيــة الروايات المعاصرة ؟ قيل : أعذب الشعر اكذبه . وكان الافضل لو قيل : أصح الشعر اكذبه . فقد مرت القرون الطويلة على شعرائنا وهم يبتدعون اكاذيبهم من اجل « العذوبة » ، اما انا فأوثر ابتداعها من اجل الحقيقة . وما الرموز إن لم تكن اكاذيب كبيرة تبتدع لخدمة الحقيقة ؟ وبما ان حقيقة الحياة هي المرارة والقذارة والخيانة والشر — وهل كان لأحد من شعرائنا « العذبين » الجرأة للاعتراف بذلك ؟ — لن تكون إلا المرارة غاية « الكذب — الحقيقــة » في الشعر . اني ادع الورود وندى الفجر لك . »

فاشتدت شفتا عبد القادر وبدت فيها القسوة : « ومن يريدها ؟ ان ما اريده هو الفن للشعب وعن الشعب . اريد من الشعر ان يكون صوت المجتمع ، لا شطحات افراد معتوهين . على الشاعر ان يقلق على امراض امته ويجد لها العلاج . »

وقال كريم : « يجب ان يسترشد بمبدأ سياسي ، فيستطيع حينئذ ان يكون مرشداً للشعب . »

فتأفف عدنان قائلاً : « اعرف نظرياتك كلها . »

واضاف حسين : « الثرثرات المعهودة . »

فقلت : « اني اميل الى الاتفاق مع عدنان فقد كان للانسانية

منـذ اقدم العصور انبياء ومعلمون دينيون وقادة سياسيون ، لينصحوها بما تفعـل وما تتجنب والى اين تذهب ، ومع ذلك فان الانسانية ما زالت في حالة محزنة . ولست اعتقـد ان الشعراء سيوفقون في ذلك اكثر من غيرهم . فلنسمح لهم اذن بخلق المتعة لنا ، إذا لم يستطيعوا خلق اي شيء آخر . فلعـل البشر عن طريق المتعـة يبلغون من نعمـة الله ما لم يبلغـوه من قبل . »

فأضاف عدنان : « المتعة بالمرارة » .

فقال عبدالقادر : « اريد فهماً ، لا متعة . فاذا جاء الفهم عن طريق المرارة صفحنا عن المرارة نفسها . ولكن يجب ان نوضع المرارة في خدمة مجتمعنا : يجب ان نستهدف الخلق عن طريق الهدم . والمشكلة هي كيف نفعل ذلك . »

كان لعبدالقادر عينان كبيرتان عميقتـا المحجرين ، يظلل اسفلها هلالان من الزرقة . وخداه العظميان وفكاه المربعتان توحي بشكل جمجمة حية . وكل شيء عنـده « مشكلة » يجب معالجتها لغرض معين وبدون رحمة . وكلما فاه بعبارة ، التمع في عينيه بريق يضطرب له جليسه . وراح يقول : « ان مشكلتنا هي كيف نستخدم الفنون في قضية الفقراء وأشباه الجاهلين . لم يقض على أدبنا الا هذه الفردية المفرطة العقيمة في ادبائنا الذين يتنكبون عن الجماهير . »

فأجاب عدنان : « أما انا فأعتقد بنقيض ما تقول . لا اظن ان في ادبائنا فردية كافية . انهم على الاغلب عموميون ، مرتخون مائعون ، وهـذا بالضبط ما يريده جمهور ليس له من القراءة والكتابة الا النزر اليسير . بل ان اكثرهم يحـاول ان يعلم ويرشد ، ولكن تعليمـه من اسخف ضروب التعليم . وهم لا يتنكبون عن الجماهير : كل ما في الامر هو انهم يعتقدون ان الارتفاع بالشعب لا يجيء ، في هـذا العصر الوثاب ، الا عن طريق احياء الفكر القديم . ولهذا تراهم يلغون ما بكل هو رث وبال . ولا يكتفون بالعلماء الذين من وظيفتهم ان يخترقوا طبقـات القديم . بل يحثوننا جميعاً على الاقتداء بهم . فهم يخلطون بـين الهواية التاريخية والفكر الابداعي . وهذا هو السبب في انك لا تستطيـع هضمهم . وكلنا لا نستطيـع هضمهم ، وها هم شيئاً فشيئاً يغلفهم السكون والحمد لله ، فذلك خير لهم . اما الادب الوحيد الذي يستطيـع البقاء ، فهو ذلك الذي تخلقه اذهان حظيت بسهم وافر من الفردية . »

فقال عبد القادر في شيء من الحنق : « ليس الأديب من هؤلاء الا بهلواناً بين جمهور من الكسحاء . اننا لا نريدهم . اننا نريد اناساً يعرفون كيف يستفيدون من اعضائهم ، ليعلّموا الآخرين كيف يستفيدون منها . والمشكلة بالطبـع ليست مجرد مشكلة ادبية . »

فردد كريم كالصدى : « لا ، انها ليست مشكلة أدبيـة صرفاً . انها سياسية . »

فقـال حسين : « التوثرات المعهودة ! فكلما ذهبت الى الماخور بقصيدة الى سميحة ، وجب عليّ ان اذهب اليها برسالة سياسية . ها ؟ انني افضل ان اذهب اليها ، كما افعل دائماً ، ومعي قصيدة عنها . ولكنني لا أمسها مطلقاً ، لأنني اعتقد ان السيلان والمعدة الخاوية لا يتفقان كثيراً . كل ما هناك هو انني انفعل بالجمال والشفقة ، ويلذ لي ان أرى لعنة الشر تنهش رونق الحياة . لا اكثر ولا اقل . »

فقال كريم : « انك انحطاطي يا حسين ! »

— انا انحطاطي ؟ طبعاً ، طبعاً . ألست اقيم في بيت كالقصر ؟ أوليس عندي طاهيان وثلاثة خـدم وسائق سيارة ؟ سيارتي « الكادلاك » من موديل السنة القادمة ، ولي اربع خليلات . طبعاً انا انحطاطي !

فضحكنا جميعاً . حتى عبد القادر ابتسم ، ممسكاً بغليونـه بين اسنانه .

وقال عدنان : « انك تستحق استكاناً آخر من الشاي على هذه النكتة . بوي ! »

فقفز نحونا الخادم ، وهو غـلام مشدود الجسم ، اشعث الصدر يكشف قميصه الرث عن صدره ، وفي زاوية فمه عقب سيجارة .

« استكاناً آخر من الشاي ، وليكن من احسن ما عندك ! »

« حاضر عيني ! » قال الخادم واختفى في حشد الجالسين

واذا عـدنان يهمس اليّ : « رأيتك مرة اخرى . مالك تكرر النظر الى ساعتك ؟ »

قلت : « انت تعلم انني مدعو للعشاء في بيت سلمى الزبيدي هذا المساء . »

قال : « ما زال هناك متسع من الوقت . انهـا ليست الثامنة بعد . وفي وسعك ان تمشي الى بيتها في عشر دقائق . »

قلت : « أعرف ، أعرف . »

كان قد انقضى شهر منذ ان قابلت السيدة سلمى الزبيدي

لأول مرة ، يوم طلبت اليّ ان « اثقف » ابنة اختها سلاف الصفوي ، باعطائها درسين في الاسبوع . وقد تركت سلمى دعوة خطية للعشاء مع سلاف لتعطيني اياها . ولما سألت تلميذتي أذاهبة هي ايضاً للعشاء عند خالتها ، ضحكت ، أجل ضحكت كأن سؤالي يبعث على الضحك ، وقالت : « انني اسمع عن حفلات العشاء واقرأ عنها ، ولكن ذلك لا يعني انني اشترك فيها . »

— لماذا ؟

— لاسباب ظاهرة .

— أ ... في الواقع لم تخسري شيئاً .

— من يخسر شيئاً لم يحصل عليه قط ؟ ولكن أصحيح ان في هذه الحفلات يتكلم المدعوون بالتلميح وان ... دسائس الحب تنتعش ؟

— ذلك امر مبالغ فيه جداً .

— لا ادري ، ولكن ليتك تحضر احدى حفلاتنا النسوية — أحد « قبولاتنا » . ان المرء ليظن من حديث النساء حينئذ انه ليس في الدنيا شيء سوى الحب .

فسرني ان اراها تستطرد ، ولو قليلاً ، عن النحو الانكليزي الذي كنت ادرسها اياه ، غير انني لم اكن مستعداً للبحث معها عما اذا كان في الدنيا شيء سوى الحب . فصرفت الموضوع بضحكة مني لم تستجب لها سلاف ، وعدنا الى الدرس .

أما الآن ، فالظاهر من حديث جلسائي ان هناك أشياء اخرى تشغل على الاقل بال الشباب . فالمسألة الخطيرة عند عبد القادر (وهو يدخن غليوناً لأنه ، كما يقول ، ارخص من السجائر) هي مسألة الفن للشعب بعد القضاء المتوقع على « غير المرغوب فيهم » سياسياً في البلاد . ولكن كثيراً ما كان يسئمني في مثل تلك الحلقات ان أراهم يثورون ويتشاجرون لآراء اولية . وكنت في شيء من ارهاق الارادة اضع نفسي مكانهم لأذوق نشوة اكتشاف آراء كتلك لاول مرة ، فقد كانوا كمن ينظر الى دجلة ثم يهتف فجأة : « انظر ! انه يتحرك ! وفيه سمك يعوم ! »

راح عبد القادر يستفيض في الحديث عن الكتابة ، قائلا ان القصص يجب ان تستقى جميعها من حياة المعدمين والمتسولين والمجرمين ، لكي تكشف عما سماه بالتفسخ والنتن في وسطنا . واذا الجميع فجأة يصرخون فرحاً عند مرآى توفيق وهو مار بالمقهى ، ويدعونه الى الجلوس معنا . لم اكن قد رأيت توفيق من قبل ، وهو دون الثلاثين بقليل ، طويل نحيل ، ذو عينين ضيقتين حادتين اشتبهت في انهما زرقاوان ، وكان لابساً عقالاً وعباءة بدوية ، وحالما عُرّفت به ، فتح اطرافها وكشف عن حزام للرصاص يلبسه تحت العباءة (كأنه قد وصل تواً من معركة) وقال : « هذا فخري وعاري ! »

فقلت : « بل انه في غاية الروعة . »

فقال فخوراً : « انه في غاية الروعة ، ولكنني كلما لقيت اخاً من فلسطين ادركت انه من العار ان البسه هنا ، لا في جبهة القتال في فلسطين . »

فأثر كلامه فينا جميعاً ، وقد ادرك هو ذلك ، ثم جلس وحيياناه من جديد ، وطلبنا له شاياً .

ويبدو ان كريم ، وهو الظل الهزيل لعبد القادر ، كان يعلم ما الذي يستفز ضيفنا ، اذ قال : « كنا نتحدث عن الادب والشعب . »

فضحك توفيق قائلا : « يسعدني ان أراكم ، كلما عدت من مضارب العشيرة ، ما زلتم تتكلمون . ليس هناك مثلنا في الكلام . »

— كنا نتكلم عن الكتّاب والشعراء . ويعتقد عبد القادر ان قصصنا يجب ..

— أعرف ، اعرف ، ولكن هناك شيئاً واحداً لن تتعلموه . وهو ان القصص والرسم والموسيقى ، الى آخر ما هناك من خزعبلات حياتكم الخانعة ، ليست الا من اختلاق المدنية . »

ولم أفهم مرماه فسألته في براءة تامة : « اتظن اذن ان علينا ان نشجعها ام لا نشجعها ؟ »

فاجاب توفيق : « لا حاجة بكم الى تشجيعها ، لان المدنية ستفعل ذلك مهما حصل . ولكنك تعلم ان المدنية تعني التقهقر ؟ »

— آ ؟

— انها تعني المرض ، الفساد . والفن نتيجة هذا الفساد ، انه الغاز السام الذي ينفثه هذا المستنقع الفسيح الذي ندعوه المدنية .

فأشار عدنان اليّ بعينيه كمن يقول : دعه يتكلم .

فسألته : « إذن ، تعتقد أن لا حاجة إلى فن ؟ »

فأجاب : « يتوقف ذلك على ما اذا كنت تريد المحافظة على مدنيتكم . وكل فنان بالطبع ، وكل كاتب قصة ، وكل روائي ، يطعن بخنجره المسموم جسم الحياة الصحيح ، لانه يخدم قضية « المدنية » . وما المدنية ؟ انها ، كما يدل اشتقاق الكلمة ، حياة المدن ، والمدن تعيش على حساب الصحراء

والريف وما الذي تحصل عليه في النهاية ؟ هـذا ... » واتى بايماءة واسعة بيده يعني بها الجمهور الكبير في المقهى . « قاعدين على مؤخراتهم ، يلغون طيلة النهار ، يتململون ويسأمون ، يصيبهم الامساك ، ثم تصيبهم العنة — والعنة متفشية فيهم حتى غدت اكثر نساء المدن اما مساحقات او متهتكات ... هذه هي المدنية . ثم يأتي الفنانون ويستخرجون من امراضهم وخنوعهم احلاماً مزوقة. احلام؟ لا بل قيء. أتريد حضارتكم؟ اليكم بالقيء . هاهاها !» ونظر حوله وصاح : « بوي ! ماء ، ماء ! » ثم أتى بشخرة عنيفة جلا فيها أنفه وحنجرته ، وقذف من شفتيه كتلة كبيرة من البلغم على الارض .

فأخذ عبد القادر غليونه من بين فكيه وقال : « اعدنا الى سخافاتك مرة اخرى ؟ الا يكفينا ان الصحراء منذ قرون تلتهم مدننا واراضينا الخصيبة ، فتريد منا الآن ان نتوقف عن مقاومتها ؟ »

فاجاب توفيق : « أنا لا اريد ان تتوقفوا عن مقاومتها . » وصب له الغلام من ابريق نحاسي كأساً من الماء شربه توفيق جرعة واحدة وأردف : « كل ما قلته هو ان الفن قيء المدنية ، لأن المدنية بدورها هي مرض . وكل مرة اعود فيها الى المراعي الفسيحة التي ترعاها عين الله ، بين المواشي الثاغية والكلاب النابحة ، ازداد يقيناً من ذلك . هل ركبت حصاناً في حياتك ؟ »

— ومن يريد حصاناً اذا استطاع ان يركب سيارة ؟

— سيارة تشتريها من امريكا بعرق ... حين تستطيع ان تركب جواداً عربياً اصيلاً ؟ هل ركبت جملاً يوماً ؟ طبعاً لا . هل نمت ليلة في خيمة ؟ هل صليت مرة في وسط افق رحب كأنه دائرة الفلك حولك ؟ هل قضيت في حياتك ليلة حراسة وبين يديك بندقية محشوة ؟ هل عرفت غزوة ؟ هل اشتركت في مخاطرة يوماً لتقصّ عنها ، أو هل اصغيت الى قصة مخاطرة — اصغيت اليها ، لا قرأتها ؟ طبعاً لا ؟ » وحضر شابه فشربه في جرعتين متواليتين . « تلك هي الحياة العربية الصحيحة ، وليس بباقٍ سواها . » ثم القى عليّ نظرة نافذة وقال : « أقلت لي انك استاذ ؟ لعل الاساتذة الذين تلقوا العلم في الخارج لا يروق لهم رأي كرأيي . ولكنك ربما تعلم خيراً مني ان العرب ما ضاعت ريحهم إلا عندما استقروا في المدن التي فتحوها . لقد نخر في عودهم ترف الامم التي قهروها ببأسهم. ولكن ما الذي كان مصدر قوتهم اول الامر ؟ الصحراء . فالصحراء معقلنا وحصننا ، خبزنا وماؤنا . وما الذي سيعيد للعرب اذن بأسهم ونشاطهم ؟ الجواب واضح : العودة الى الصحراء . العودة الى خشونة الصحراء وسنّتها الاخلاقية . العودة الى الصراع بين القبيلة والقبيلة لكي نبقي على صحتنا ويقظتنا . وهناك في الصحراء لن تستخرج القصص من احلام افراد مخنّثين خائبين، يحسبون الحب اعظم مكتشفات الانسان ومع ذلك لا يحصلون من ملذات الحب إلا على جلد عميرة ! هاها ! المعذرة عن هذا الكلام . فنحن ابناء الصحراء لا نؤمن باللف والدوران ، ونسمّي الاشياء باسمائها ، لان لنا معداً قوية ، ومتعتنا جسدية ومباشرة . وقصصنا هناك هي اخبار اناس حقيقيين وحوادث حدثت بالفعل . ولا يهمنا ان نسجلها في الكتب ، لانها تبقى حية على شفاهنا . اعمالنا الفنية الحية هي نحن انفسنا ، وكل ما عدانا ميت ولا قيمة له . أتعرف قصة البدوي الذي شعر مرة بدافع يحدوه الى صنع تمثال ؟ لقد اراد ان يصنع تمثالاً لامرأة ميتة كان يحبها، ولكن لم تكن لديه مواد يشتغل بها . غير انه وجد كمية من التمر . فصنع التمثال من التمر . وجاع في الصباح التالي ، فأكل التمثال ! وقد اصاب في ذلك . فنحن انفسنا يا سيدي تحف الجمال الوحيدة ، والحمد لله الفنان الأوحد . »

فانفجر عدنان بقهقهة مدوية ، وقال : « نحن انفسنا تحف الجمال الوحيدة ! ما اعظم خداع النفس ! والمخلوقات القاطنة في اكواخ « العاصمة » ، تلك المخلوقات القبيحة ، القذرة ، الهزيلة جوعاً ، هي تحف من الجمال ولا ريب ! »

فتصدى له توفيق قائلاً : « مدنيتكم هي التي حطت منهم — حضارتكم الكريهة . »

قال عدنان : « وسكان الأهوار في الجنوب، الذين يعيشون مغموسين في مستنقعات الأرز حتى يتساقط اللحم عن اقدامهم وكواحلهم ، هم تحف من الجمال ايضاً ! »

ولم يمهله عبدالقادر للجواب إذ قال : « لو سمعك اعداؤنا لعشقوا كل كلمة فهت بها . »

« ماذا تعني ؟ »

« اعني ان اليهود يتمنون لو نعتقد نحن بضرورة العودة الى الصحراء . »

فاشتعلت عينا توفيق غضباً وصاح : « يا ابن الـ ... لقد رأينا امثالكم في حرب فلسطين . ملأتم الدنيا كلاماً وتشدقاً، ولكن في ساعة العمل تحجرت مفاصلكم لأن الانكليز والاميركان لم يتفقوا معكم . ولولا نحن العشائر ، لكان الانكليز ما زالوا على ظهوركم في هذا البلد حتى الآن . »

فقال كريم : « لم يكن لدينا تنظيم سياسي صحيح ، وما زلنا نفتقر اليه . ولكننا لا ندعو الناس الى العودة الى البراري والفلوات لندفن رؤوسنا في الرمال . »

— « ليس في قلوبكم ذرة من الايمان . تلك هي بليتكم . كلكم تنضحون كلاماً ، ولكن لا ذرة من الايمان فيكم ولا قطرة . تعالوا عيشوا في خيام الصحراء شهراً واحداً ، اعلمكم كيف يشعر الانسان عندما يعمر قلبه بالايمان ، وكيف يحق لكم حينئذ ان تفتخروا بانفسكم هذه الصغيرة العاجزة . »

لقد كان توفيق كالسلك الكهربائي المعرّض ، في لمسه خطر، وفي مقدوره ان يفوق كلاماً جميع من يعيّرهم هو بكثرة الكلام . وقد لاحظت ان الشباب الآخرين ، قد يخالفونه في الرأي ، ولكنهم معجبون بفصاحته ويستمتعون بفوران حديثه ولعلهم كانوا يمازحونه ليستدرجوه الى مثل ذلك الفوران . ولكن الساعة كانت الثامنة والثلث ، وكان عليّ ان اتركهم لأبلغ بيت سلمى في الثامنة والنصف .

* * *

كان الليل قد انتصف عندما انفض المدعوون في بيت سلمى، فشعرت برغبة في رؤية عدنان والتحدث اليه مرة اخرى، فعدت وحدي ماشياً ، والهواء البارد يهب عبر النهر بليلًا منعشاً . فلما بلغت « الكازينو » حيث تركت صحبي يتناقشون ، وجدت ان المقهى قد تحول الى مكان فسيح خال، وقد رصفت كراسيه فوق الموائد ، ازاء احد الجوانب ، واوراق الجرائد الممزقة تزحف مع الهواء عابثة على الارض الملطخة . وكان هناك في الضوء الوحيد الباقي في احد الاركان ، بضعة رجال يتحدثون في هدوء بين اعقاب السجائر ، وحسين جالساً على طرف منهم يقرأ في مجلة .

فسألته : « أين الجماعة ؟ »

فقال : « ذهبوا الى « الليالي الذهبية » مع توفيق لشرب العرق . »

و« الليالي الذهبية » مقصف قريب، فمشيت نحوه، واذا عدنان وتوفيق يخرجان منه، وهما يضحكان، وفي مشيتهما ترنح واضح .

فصاح عدنان حالما لمحني : « ها ؟ أعدت من بيت سلمى ؟ إيدك بالدهن ! »

فقال توفيق : « لماذا ؟ أصيبة سلمى ؟ »

— في سن جدتي ، أو على الأقل في سن الأربعين . ولكن اذا شددت ظهرك بسلمى الزبيدي ، حصلت على ما تريد ! »

فقلت : « يظهر انك سكران . »

— سكران ؟ سلمى الزبيدي ابنة خالة أمي ، وأنا احبها واكرّمها . ولكنها حشرت نفسها في ذلك الوسط المصطنع الكريه ، لتكون محاطة بالمدعوين ليلًا ونهاراً فلا تتكلم إلا بالانكليزية . لقد قررت ان ازورها غداً واخبرها برأيي فيها .

فقال توفيق : « نأخذها معنا إلى الصحراء ، ونحجبها ، ونبقيها في خيمة مع النسوة والماشية . ولتتكلم بالانكليزية عند ذلك الى ان تشبع ! »

— اي صحراء يا توفيق ؟ حتى العرق لا يقتلع الرمال من رأسك ؟

— أليست الرمال اصفى وانظف من كل هذه البيوت المحشوة بمن فيها ، والشوارع البائسة التي قضيت عمرك تتشبب بها ؟

— لو تدري ما اتمناه لشوارعنا التي اعشقها ، لو تدري فقط! إن ما أتمناه هو أن أراها وقد انقلبت رأساً على عقب . وبيوتنا وقد خوت ، ونساءنا وقد ملأن الازقة عربدة ، والدم يجري حتى الركب . لا صحراء ، ولا مدن ، ولا فن للشعب ، ولا سياسه ، ولا مباغي ولا حفلات عشاء . فوضى متضاغية ، وعبد القادر يرفع غليونه من بين اسنانه الصفراء ليغبّ من بول الشعب ، وسلمى تصب خمرها الفرنسية لعشر جيف حولها، وأنا انعب بقصيدتي الاخيرة فوق الجرائب .

كان لصوت عدنان رنين في الطريق الخالي كرنين أجراس ضخمة في واد من الصخر والشوك . يتكلم وهو يدافعنا على الرصيف المشجّر ، ويقف بين الخطوة والاخرى ، ويرفع يده وينزلها كأن الفاظه تعلو وتهوي معها .

فقال توفيق : « والله لأركبنك فرساً ، وأحملنك بندقية وأعلمنك معنى الرجولة . »

— خليت الرجولة لك . ولكنك عنيد يا توفيق . تفضل عنزتك على نسائنا ، ومع ذلك لا تستطيع ان تبقى بعيداً عن المومسات شهراً واحداً . تعال معي اعلمك معنى الضعف ، معنى

الحزن

يا صاحبي اني حزينْ
طلع الصباح فما ابتسمت ولم ينر وجهي الصباح
وخرجت من جوف المدينة اطلب الرزق المتاح
وغمست في ماء القناعة خبز ايامي الكفاف
ورجعت بعد الظهر في جيبي قروش
فشربت شاياً في الطريق
ورتقت نعلي
ولعبت بالنرد الموزع بين كفي الصديق
قل ساعة او ساعتين
قل عشرة او عشرتين
وضحكت من اسطورة حمقاء رنمها الصديق
ودموع شحاذ صفيق
وأتى المساء
في غرفتي دلف المساء
والحزن يُولَدُ في المساء لأنه حزين ضرير
حزن طويل كالطريق من الجحيم الى الجحيم
حزن صموت
والصمت لا يعني الرضاء بان امنية تموت
وبان اياماً تفوت
وبأن مرفقنا وهن
وبأن ريحاً من عفن
مسّ الحياة فأصبحت وجميع ما فيها مقيت

★

حزن تمدد في المدينة
كاللص في جوف السكينة
كالأفعوان بلا فحيح
الحزن قد قهر القلاع جميعها وسبى الكنوز
واقام حكاماً طغاة
الحزن قد سمل العيون
الحزن قد عقد الجباه
ليقيم حكاماً طغاة

★

يا تعسها من كلمة قد قالها يوماً صديق
مغرى بتزويق الكلام
كنا نسير
كفي لكفيه عناق
والحزن يفترش الطريق
قال الصديق
يا صاحبي ما نحن الا نفضة رعناء من ريح السموم
أو منية حمقاء ، ألشيطان خالقنا ليجرح قدرة الله العظيم
او ان اسمينا
عطارد قد يكون
برجي وبرجك يا صديق
وضحكت فابتسم الصديق
ومشى به خدر رفيق
ورأيت عينيه تألقتا كمصباح قديم
في كوخ حراس المنارْ
ومضى يقول
سنعيش رغم الحزن ، نقهره ونصنع في الصباح
افراحنا البيضاءَ ... افراح الذين لهم صباح
ورنا اليّ ...
ولم تكن بشراه مما قد يصدقه الحزين
فسحبت كفي من يديه
يا صاحبي
زوّق حديثك ، كل شيء قد خلا من كل ذوق
اما انا فلقد عرفت نهاية الحَدَر العميق
الحزن يفترش الطريق

صلاح الدين عبدالصبور

الخوف. فتعرف كيف يقطّع اليأس القلب والاحشاء والدماغ. لا ، لا اريد تحفك الجمالية ، ولا اريد فن عبد القادر وهو يقوّد للفقراء والجاهلين . أع ... اريد ، اريد ... السماء مطبقة على الأرض ، والناس ممسكين باحشائهم يئنون ، والشرطة يصوبون بنادقهم عـــلى رؤوس النساء ، وانا وانتم فوق ركام الشوارع ننعب كالغربان ...

وتدشأ مرة ، واعتذر ، وتدشأ مرة اخرى ، ثم اتكأ على شجرة ، وقال : « وحينئذ ... وحينئذ ستخلد ذكرانا الملفات السرية في الـ ... أع ... »

وتراشق القيء من فمه . فأمسكنا به ، وقد غدا لين الجسم عاجزاً عن الوقوف ، وقال توفيق : « أما قلت لك لا تكثر من العرق اذا ما كنت قد تعشيت ؟ »

وتقيأ عدنان مرة اخرى ، وقال توفيق هامساً لي : مسكين ما معه فلس ليتعشى عشاء مثل الناس .

ثم اجلسناه على الأرض ليستريح .

جامعة هارفرد — الولايات المتحدة

جبرا ابراهيم جبرا